﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

[النّمل: 73 - 75]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

من دلائل الألوهيّةِ سعةُ علْمِه سبحانه وعميمُ فضلِه وإحاطتُه وحده بالغيب

بعد التّخويف والتّهديد بحلول العذاب الدّنيويّ، وما يُلقيه ذلك في نفوس الكافرين منَ الرّعب وانقطاعِ الأمل؛ جاءتِ الآيات التّالية لتوضِّح أنّ الله ﷻ لا يَعْجَلُ عَلى أهْلِ المَعاصي بِالانْتِقام، مَعَ القَطْعِ بِتَمامِ قُدْرَتِه، وأنّ ذلك منه سبحانه مَحْضُ تَفَضُّلٍ وإنْعام. ولمّا كانَ الإمْهالُ قَدْ يَكونُ مِنَ الجَهْلِ بِذُنوبِ الأعْداءِ، قالَ نافيًا لِذَلِكَ: إنّ ذلك الحِلمَ والتّفضّل والإنعام منه سبحانه مع تمام العِلْم بما تحويه صدورُ الكافرين وما يعلنونه، وأنّه تبارك اسمُه لا يَخْفى عليه شَيْءٌ في الأرض ولا في السّماء، بل أحصى أفعالَهم وأقوالَهم في كتاب مبين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضْلٍ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ: الزّيادَةُ والخَيْرُ. والإفْضالُ: الإحْسانُ[2]. فالمعنى المحوريّ: زيادةٌ من مادّة الشّيء متميّزةٌ عنه[3]. والفَضْلُ: الزّيادة عنِ الاقتصاد، وذلك ضربان؛ محمود: كفضل العِلْم والحِلْم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه. والفَضْلُ في المحمود أكثرُ استعمالًا، والفُضولُ في المذموم، والفَضْلُ إذا استُعمل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210 - 211.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاق المؤصّل: (فضل).

لزيادة أحدِ الشّيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرُبٍ: من حيثُ الجنسُ، والنّوعُ والذّاتُ، وكلّ عطيَّةٍ لا تَلْزَمُ من يُعطي يقال لها: فَضْلٌ. نحو قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 54][1]. ومعنى ﴿فَضْلٍ﴾ في الآية: التّفضُّل منَ الله من غير إلزام، وفيه معنى الإحسانِ والمَنِّ والعَفوِ والتّجاوزِ والإنعام.

2) ﴿يَشْكُرُونَ﴾: (شكر) أُصولٌ أَرْبَعَةٌ مُتَباينَةٌ بَعيدَةُ القياسِ، منها: الشُّكْرُ: الثَّناءُ عَلَى الإنْسانِ بِمَعْروفٍ يوليكَهُ. وحَقيقَتُهُ الرِّضا باليَسيرِ[2]. والشُّكْرُ: تصوُّر النِّعمة وإظهارُها، وهو الامتلاءُ من ذِكْر المُنْعِم عليه. وهو ثلاثةُ أضربٍ: شُكْرُ القلبِ، وهو تَصوُّر النّعمةِ، وشُكْرُ اللّسانِ، وهو الثّناءُ على المُنعِم، وشُكْرُ سائر الجوارح، وهو مكافأةُ النّعمة بقدر استحقاقه. والشُّكْر: عِرفانُ الإحسانِ لصاحبه ونَشْرُه وإظهارُه؛ إذ هو تعبيرٌ عنِ امتلاء النّفس ورضاها بما قُدّم لها من خير، ونُجوعُ هذا الخيرِ فيها. وشُكرُ اللّه للعبد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التّغابن: 17] إثابَتُه إيّاهُ على الطّاعة، وقيل: رضاه عنه؛ إذِ الرّضا كالشّكر في أصل معناه، ولكنّ الشّكرَ يزيد عنِ الرّضا في معنى الظّهور، والإثابةُ تاليَةٌ للرِّضا[3].

3) ﴿تُكِنُّ﴾: (كنن) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ أَوْ صَوْنٍ. يُقالُ: كَنَنْتُ الشَّيْءَ في كِنِّهِ، إذا جَعَلْتَهُ فيهِ وصُنْتَهُ. وأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ[4]. والكِنُّ: ما يُحفَظُ فيه الشَّيءُ. يقال: كَنَنْتُ الشَّيءَ: جعلتُه في كِنٍّ، وخُصَّ (كَنَنْتُ) بما يُسْتَر ببيت أو ثوب، وغير ذلك منَ الأجسام، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصّافات: 49]، و(أَكْنَنْتُ): بما يُسْتَر في النّفس[5]. والمعنى المِحوريّ السَّتْرُ في تجوُّف متينٍ يستُر أو يَحْمى. قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]، وجمْعُ الكنّ أَكْنانٌ[6]. والكِنانُ: الغطاءُ الذي يُكَنّ فيه الشَّيء، والجمع أَكِنَّةٌ. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25]، وقال:

(1) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كنن).
(5) الرّاغب، المفردات: (كنن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كنن).

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ [فصلت: 5]. قيل: معناه في غطاء عن تفهُّم ما تورِدُه علينا[1]. ومعنى ﴿تُكِنُّ﴾: تُخْفي وتَسْتُر.

4) ﴿صُدُورُهُمْ﴾: (صدر) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: صَدْرُ الإنْسانِ وغَيْرُهُ، والجَمْعُ: صُدورٌ[2]. والمعنى المحوريّ: مُقَدّم جسم الشّيء أو أعلاه الذي يَبْدأ منه أَضْخَمُه[3]. قال بعضُهم: حيثما ذَكَر اللّهُ تعالى القلبَ فإشارةٌ إلى العقل والعِلْم، نحو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذَكَر الصَّدْرُ الصَّدْرَ فإشارةٌ إلى ذلك، وإلى سائر القِوَى منَ الشّهوة والهَوَى والغضب ونحوِها، كقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، فسؤالٌ لإصلاح قواه، وكذلك قوله: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [التّوبة: 14] إشارةٌ إلى اشتفائهم، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]، أي: العقولُ التي هي مندرسةٌ فيما بين سائر القِوى، وليست بمهتدية[4].

5) ﴿يُعۡلِنُونَ﴾: (علن) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إظْهارِ الشَّيْءِ والإشارَةِ إلَيْهِ وظُهورِهِ. والعَلانيَةُ: ضِدُّ السّرّ، وأكثر ما يقال ذلك في المعاني دونَ الأعيان[5]. والمعنى المحوريّ: ظهورُ ما كان خفيًّا في الباطن، أي: خروجُه منه مع انكشافٍ وإشهارٍ، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم: 38]. وكلّ ما في القرآن منَ التّركيب قُرِن فيه ذِكْرُ العلانية بذِكْر ضِدّها الخفاءِ أوِ الإسرارِ[6]. قال تعالى: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: 9]، أي: سِرًّا وعلانية[7]. ومعنى: ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ يُظْهِرون.

6) ﴿غَآئِبَةٖ﴾: (غيب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عَنِ العُيونِ[8]. والمعنى المحوريّ: الاختفاء استتارًا بكثيف في أثناءٍ أو عُمْقٍ[9]. ويقال للشّيء: غَيْبٌ وغائبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يَعْزُب عنه مثقالُ ذَرّةٍ في السّموات

(1) الرّاغب، المفردات: (كنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علن).
(7) الرّاغب، المفردات: (علن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيب).

السّماوات ولا في الأرض. وقولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]، أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والغَيْبُ في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3] ما لا يقع تحتَ الحواسّ، ولا تقتضيه بدايةُ العقولِ، وإنّما يُعْلَم بخبر الأنبياء ﷺ[1]. والغائبة هاهنا: كلُّ سِرٍّ مكتومٍ وأمرٍ خَفيّ يغيب عن أبصار النّاظرين[2].

7) ﴿مُّبِينٖ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ. وبانَ الشَّيْءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[3]. والمعنى المِحوريّ: امتدادٌ بين طرفين أو جانبين، مع فصل كبير أوِ اتّساع. ومن ذلك: الفصلُ والتّمييزُ، جاء بمعنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصولَ المُتَمَيّز من غيره يَلْفِتُ النّظرَ، وهو المعنى الذي جاءت به كلُّ مفردات التّركيب القرآنيّة، عدا الظّرف (بين)[4]. والبَيانُ: ما بُيِّن به الشَّيءُ منَ الدّلالة وغيرها، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ [آل عمران: 118][5]. و﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾: يَبينُ لمَن نظرَ إليه، وقرأ ما فيه، ممّا أثبتَ فيه ربُّنا جَلّ ثناؤُه[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد أنْ ساقتِ الآيةُ السّابقةُ الإنذارَ بالعذاب العاجل القريب للمُكذّبين، بيّنت هذه الآياتُ الكريماتُ أنّ الله هو المُنعِم المُتفضِّلُ على النّاس جميعًا، مؤمنِهم وكافرِهم، حيثُ يُسْبِغ إنعامَه عليهم في الدّنيا، مع ظُلْمِهم لأنفسِهم، وأنّه سبحانه يترك معاجلتَهم بالعقوبة على كفرهم ومعاصيهم، ولكنّهم مع ذلك كلِّه فإنّ أكثرَهم لا يشكر

عِـظَـمُ شـأنِ الأُلـوهـيّـة لا يَـقْـدُرُه حَـقَّ قَـدْرِه إلّا قِـلَّةٌ مِـنَ المـؤمـنين الشّاكرين

(1) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات: (بين).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 116.

اللّهَ على فضله، ولا يشكرُه إلّا القليلُ منهم. ثمّ ساقتِ الدّلائلَ البيّناتِ على قُدرته سبحانه وإحاطةِ عِلْمه بما في الضّمائر والسّرائر، كما يعلم الظّواهرَ، والمرادُ: أنّه تعالى عالمٌ بمكائِدِ المشركين للرّسول، وسيُجازيهم على ذلك. ثمّ أبان اللّهُ تعالى حقيقةً شاخصةً عامَّةً، وهي أنّ كلّ ما في الكون محفوظٌ في اللّوح المحفوظ، فما من شيء غائبٍ مَخفيٍّ في السّموات والأرَضين إلّا وهو موجودٌ معلومٌ في اللّوح المحفوظ، الذي أثبتَ فيه اللّهُ تعالى كلَّ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فهو سبحانه عالمُ الغيب والشّهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، وعالمُ غيبِ السّموات والأرض من أمر الخلائقِ قاطبةً.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تلوينُ الخِطابِ في صدر الآية:

عَظَمةُ الرّبوبيّةِ في تأخير الوعيدِ بالعذاب القريبِ إلى الإمهال والفضل

انتقل النّظمُ الحكيم من وعيد الكفّار بالعذاب الدّنيويّ العاجلِ، إلى بيان فضل الله تعالى وإنعامِه على النّاس عامّة، وعلى الكفّار خاصّة بإمهالهم، فعطفَ بالواو بين ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ وذلك للتّوسُّطِ بين الكَمالَين، كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاع بينَهما؛ إذ كلتاهما جملتان خبريّتان. وقد وقعتِ الآيةُ الثّانية مَوْقِعَ الاسْتِدْراكِ عَلى قَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾، أيْ: إنَّ تَأْخيرَ العَذابِ عَنْهم هو مِن فَضْلِ اللّه عَلَيْهِمْ. وهَذا خَبَرٌ خاصٌّ بِالنَّبي ﷺ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ تَأْخيرَ الوَعيدِ أثَرٌ مِن آثارِ رَحْمَةِ اللّه؛ لِأنَّ أزْمِنَةَ التَّأْخيرِ أزْمِنَةُ إمْهالٍ، فَهُم فيها بِنِعْمَةٍ؛ لِأنَّ اللّه ذو فَضْلٍ عَلى النّاسِ كُلِّهِمْ[1]. فتَفضَّل اللّهُ عليهم بالإمهال، ولم يستأصلْهُم بعذابٍ قريب برغم استحقاقِهم لذلك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 28.

دلالاتُ التّوكيدِ بمُؤكّدات ثلاثةٍ:

فضلُ اللهِ عميمٌ، وإنعامُه جزيلٌ، لا يُحرَمُ منهما إلّا كلُّ معاندٍ أثيم

أُكّد قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمُؤكّدات ثلاثة، هي التّأكيد بالجملة الاسميّة، وحرفِ التّوكيد (إنَّ)، ولامِ التّوكيد المُزحلقة الواقعةِ في خبر (إنّ)، ومنها كذلك: التّعبيرُ بالاسم الدّالّ على المصاحبة (ذو)، وقد أفاد حشدُ هذه المُؤكّداتِ إزالةَ كلّ شَكٍّ أو لَبْسٍ عند الكافرين المُكذّبين بالبعث والعذاب الدُّنيويّ؛ لحَثّهم على الدّخول في حظيرة الإيمان. والتّأكيدُ بـ (إنَّ) واللّام في ﴿لَذُو﴾ مَنظورٌ فيه إلى حالِ النّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ ﷺ، فالتّأكيدُ واقعٌ مَوْقِعَ التّعْويضِ بهِمْ، بقَرينَةِ قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ الرّبّ دونَ الإله:

الإنعامُ والتّفضُّل من مقتضيات الرّبوبيّة

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾؛ وذلك لأنّ التّفضُّل بالإمهال برغم المعصية والتّكذيب في هذا السّياق أليقُ بمقتضيات الرّبوبيّة، وفي هذا إشارةٌ ضمنيّةٌ إلى الإنذار والتّخويف بهذا المقام المُنيف، ويفتحُ بابَ التّوبةِ والأَوبةِ لهؤلاء المُكذّبين المُعاندين. ويمكن القولُ: إنّ نسبةَ الفضل للرّبوبيّة مَرّةً، وللأُلوهيّة مَرّات في سور البقرةِ ويونس وغافر من باب التّفَنُّن في الخطاب.

دلالةُ إضافةِ الرّبِّ إلى النّبيّ ﷺ:

تسليةُ اللهِ ﷻ لنَبيّه وتشريفُه، بإضافة ضميرِه إلى اسمه ﷻ

جاءتِ الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾ لتُضيفَ ضميرَ المخاطبِ إلى لفظ الرّبوبيّة، والمُراد بالمخاطب هاهنا النّبيُّ ﷺ أصالةً، وإن دخل فيه كلُّ مؤمنٍ مُصَدّقٍ يدعو إلى الله بالتّبعيَّة، وقد آثَرَ النَّظمُ الحكيم التّعبيرَ بهذا الضّمير تسليَةً للنّبيِّ ﷺ بعد أن كَذّبَه قومُه، وعانَدوه، وتَهَكَّموا بوعيد الله وعذابه الدّنيويّ والأُخرويّ، برغم حرصِ النّبيِّ ﷺ على إيمانهم وهدايتِهم؛ استنقاذًا لهم منَ العذاب، فجاء لفظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 28.

(الرّبّ) مشتملًا على معاني المَعيّةِ والرّعايَة والحِفظِ والعناية، وذلك إشارةٌ إلى ظِلال الأُنس والمُلاطفة. ففي هذه الإضافة دلائلُ التّشريف والرِّفعة، وفي الرُّبوبيّة معاني الرَّحمة والتّدبير، حتّى لا يَحْزَنَ النّبيُّ ﷺ أو يَضيقَ صَدرُهُ بصدودِهم وإعراضِهم.

توجيهُ التّعبيرِ بـ ﴿لَذُو﴾:

الـلـهُ سبحانه مُختصٌّ بالفضل وحْدَه

أفادتِ اللّام في قوله: ﴿لَذُو﴾ زيادةَ تأكيدِ مضمونِ الخبر وثباتَه، فالفضلُ ثابتٌ للّه لا شَكّ في ذلك، وقد أُضيفَ لفظ ﴿لَذُو﴾ إلى كلمة ﴿فَضْلٍ﴾ لاختصاصه وحْدَه سبحانه بالفضل الكامل، فهو شأنٌ من شؤونِه سبحانَه[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفَضْل مادّةً وصيغةً:

لـــولا فـضـلُ الـلـهِ وإنـعـامُه لعُجِّلَ العذابُ للمُكذِّبين

في قوله تعالى: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عُبّر بالمصدر (الفضل)؛ لتأكيد معنى الفعل المُجَرَّد عنِ الزّمن؛ للدّلالة على الدَّيمومة والاستمراريَّة في فضل اللّه سبحانه، كما أفاد تنكيرُ كلمة ﴿فَضْلٍ﴾ في سياق الامتنان بعد إقامه البيان والحُجّة، معنى التّعظيم والتّكثير والتّفخيم لهذا الفضلِ العظيم، الذي لا يُكْتَنَه كُنْهُهُ، فأشارت كلُّ هذه العواملِ مجتمعةً إلى تأكيد فضلِ اللّه وعظيم إنعامِه على تأخير العذاب عن هؤلاء المُكذِّبين المُعانِدين.

فائدةُ التّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

عـظـمـةُ فـضـلِ الـلـه سبحانه واستيلاؤُه على جميع الخَلْق

عبّر النّظمُ الحكيم بحرف الجَرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ التي تُفيد الاستعلاء، وعدلَ عنِ اللّام التي تُفيد الاختصاص، فلم يقل: (للنّاس)؛ ليُفيدَ عَظَمةَ صاحبِ الفضل سبحانه، وتَمَكُّنَ فضلِه في النّاس واستيعابَه وشمولَه، فاستولى فضلُه ﷻ واستعلى على النّاس أجمعين.

دلالةُ التعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

جاءت (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جِنسيّةً استغراقيّةً، تُفيدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 28.

العموم، أي: على النّاس جميعًا؛ إذ أنعم عليهم بالعقل المُمَيِّز بينَ الحَقّ والباطل، والحُسْنِ والقُبْحِ، ورَحِمَهم بإنزال الكُتب، وإرسالِ الرُّسل، وبيّنَ لهمُ الأسرارَ التي لا تستقلُّ العقولُ بإدراكها، وأرشدَهم إلى ما يَهُمُّهم من أمر المَعاش والمَعاد، وبما ساق إلى النّاس كلِّهم منَ الرِّزق، كافرِهم ومؤمنِهم، وبما أَخَّر عن كافريهم منَ العذاب، برغم علمِه سبحانه بكفرهم وعنادهم. ومن ثَمّ فقد عبّر النّظمُ الحكيم بهذه الكلمة في كلّ المواضع التي جاء فيها هذا التّركيبُ لإفادة الاستغراق.

كمالُ الفضل أن يكون عامًّا للخَلْق أجمعين مؤمنِهم وكافرِهم

فائدةُ التّعبيرِ بالواو وحرفِ الاستدراك:

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ جاءتِ الواو عاطفةً تبيّنُ مغايرةَ ما بعدَها لِما قبلها، وجاءت (لَكِنَّ) للاستدارك، وهو حرفٌ ناسخٌ مُشَبّهٌ بالفعل، والاسْتِدْراكُ ناشِئٌ عَنْ عُموم الفَضْلِ مِنهُ تَعالى، فَإنَّ عُمومَهُ وتَكَرُّرَهُ يَسْتَحِقُّ بِأنْ يَعْلَمَهُ النّاسُ فَيَشْكُروهُ. والتّقدير: (إنّ الله لذو فضلٍ كثير على النّاس، بنِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فيَجب عليهم أن يشكروا تفضُّلَه عليهم، وإحسانَه إليهم، ولكنّ أكثرَهم لا يشكرون فضلَه كما ينبغي، فقد جادلَ الكفّارُ وعاندوا، فلم يشكروه أصلًا، بل كفروا وتَهَكَّموا). فالاستدراكُ بـ(لَكِنَّ) بيّنَ قِلّة الشّاكرين الذين قَدَروا نِعَمَ ربِّهم حَقّ قَدْرِها.

برغم النّعمِ العديدة والفضلِ الجَزيل تَنكَّر المشركون لخالقهم فلم يَشْكُروه

غرضُ التّعبيرِ بالأكثريّة في الآية:

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الأكثريّةِ في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وعدلَ عن القول: (ولكنّهم لا يشكرون)؛ إنصافًا للقِلّة الشّاكرة مِن خَلْقِه سبحانه، ومَدْحًا لهم على استقامتهم على طريق الحَقّ، فجاء التّعبيرُ بالأكثريّة ذَمًّا للجاحدين، وإعلاءً من شأن الشّاكرين، وإن كانوا قِلّةً عدديّةً، ولكنّها قِلّةٌ لها قَدْرُها عند الله تعالى، فاستَحَقّوا التّعبيرَ بما يُلائم قَدْرَهم عند الله الذي لا تضيعُ عندَه الأعمالُ الصّالحات.

طَلاقةُ العدلِ الإلهيّ تقتضي إنصافَ الشّاكرين، ولو كانوا قِلّةً عدديّة

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

قضيةُ الإظهارِ والإضمارِ تتناسبُ مع السّياقِ الذي وردت فيه

عبّر النّظمُ الحكيم بالضّمير (هم) في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ الذي يعود على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: 60]. للمشاكلةِ بين سياق السّورة، فوردتْ على ما هو الأصلُ منَ الإتيان بالضّمير؛ ليحصلَ به رَبطُ الكلام. وأظهرَهُ في سورتَي البقرة وغافر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]، وذلك لأنّ المقصود منَ السّياق في هَذَين الموضعين تحريكُ الخَلْق للاعتبار والتّذكير بما نَصَبَ سبحانه منَ الدّلائل والآيات، فاقتضى ذلك تَكرارَ الاسمِ الظّاهر، وللمشاكلةِ في الألفاظ في السّورتين(1).

نُكْتَةُ التّعبيرِ بعدم الشّكر مادّةً وصيغةً:

على الرّغم من كثرة الفضل وعمومِه، فإنّ الشّاكرين قِلّةٌ معدودةٌ

ختم النّظمُ الحكيم الآيةَ الكريمة بقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، فاختصَّ ختامَ الآيةِ بعدم الشُّكر؛ للمناسبة بين إثبات الفضل لله تعالى، ونقيضِه وهو عدمُ الشّكر. وقد قُرِنَ في القرآن بين فضل الله والتّعريض بعدم الشّكر أربعَ مَرّات، في المواضع الآتية: [البقرة: 243]، و[يونس: 60]، و[النّمل: 73]، و[غافر: 61]، وعبَّر النّظمُ في هذا الموضع وغيرِه بالفعل المضارع، المُسنَد إلى ضمير الجمع، إشارةً إلى تَجدُّد النّعم، فمقتضى تَجدُّدِها تَجَدُّدُ شكرِها، لكن لمّا كان الصّادرُ عنهم نقيضَ مقتضى الشُّكرِ، وهو الجُحود والكُفْر، فُهِمَ أنّ كفر النِّعَم هو المُتَجَدِّدُ، فعَبّر بنفي الشّكر تنبيهًا على وجود المُنعِم؛ فاكتسى النّظمُ اختزالًا بديعًا.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 337، والغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 371 - 372.

دلالةُ حذفِ المفعول به:

إنّما يَستَحِقُّ الشُّكْرَ سبحانَه لكونه صاحبَ كلِّ فضلٍ ونِعْمَةٍ ومِنَّةٍ

حَذَفَ النّظمُ الكريم المفعولَ به من قوله تعالى: ﴿يَشْكُرُونَ﴾، ويحتمل أن يكون المفعولُ المحذوف (نِعَمَه)، أي: لا يشكرون نعمَه، أو أن يكون ﴿يَشْكُرُونَ﴾ بمعنى (يعترفون)، أي: لا يعترفون بنعمه، وعبّر بذلك عن نفي معرفتهم بالنِّعمة بنفي ما يترتَّب على هذه المعرفة من شُكر[1]. وقد أفاد هذا الحذفُ أغراضًا ثلاثة؛ **الأوّل:** إفادةُ العموم، أي: لا يشكرون كلَّ ما يجب أن يشكروا اللّهَ تعالى عليه، وهذا أبلغُ من ذِكْر المفعول؛ لأنّ ذِكْره يُؤدّي إلى تخصيص نِعْمَةٍ بعينها من نِعَم اللّهِ الكثيرة الجليلة. **والثّاني:** مراعاةُ الفاصلة القرآنيّة بما يُحَقّق إحكامَ اللّفظ وكمالَ المعنى. **والثّالث:** الإيجازُ بما يلائم الإعجازَ القُرآنيَّ، إذ هو سبحانه صاحبُ كلّ فضلٍ ونِعْمَة ومِنَّة، فهم لا يشكرون نِعَمَه عندَهم، بل كثيرٌ منهم يُشْرِكون معه في العبادة ما لا يَضُرُّهم ولا ينفعُهم، ولا فضلَ له عندَهم ولا إحسان[2].

فائدةُ العطفِ في صدر الآية:

حالُ الكافرين لا يَخْفَى على عِلْم الله سبحانه

وقعتِ الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ استئنافيَّةً، ووقعتِ الجملة كلُّها مَوْقِعَ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ؛ لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ المُؤْمِنينَ أنْ يَقولوا: إنَّ هَؤُلاءِ المُكَذِّبينَ قَدْ أضْمَروا المَكْرَ وأعْلَنوا الاسْتِهْزاءَ، فَحالُهم لا يَقْتَضي إمْهالَهم؟ فَيُجابُ بأنَّ الَّذي أمْهَلَهم مُطَّلِعٌ عَلى ما في صُدورِهِمْ وما أعْلَنوهُ، وأنَّهُ أمْهَلَهم مَعَ عِلْمِهِ بِهِمْ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُها، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهم يُكِنّونَ أشْياءَ لِلنَّبي ﷺ ولِلْمُؤْمِنينَ، مِنها: أنَّهم يَتَرَبَّصونَ بِهِمُ الدَّوائِرَ، وأنَّهم تُخامِرُ نُفوسَهم خَواطِرُ إخْراجِهِ وإخْراجِ المُؤْمِنينَ. وهَذا الاسْتِئْنافُ لَمّا كانَ ذا جِهَةٍ مِن مَعْنى وصْفِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 20/ 31.
(2) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5462.

اللّه بإحاطَةِ العِلْمِ، عَطَفَ جُمْلَتَهُ عَلى جُمْلَةِ وصْفِ اللّه بالفَضْلِ، فَحَصَلَ بالعَطْفِ غَرَضٌ ثانٍ مُهِمٌّ، وحَصَلَ مَعْنى الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ مِن مَضْمونِ الجُمْلَةِ[1].

دلالةُ إعادةِ التّوكيد في الآية الثّانية بمُؤكِّداتٍ ثلاثةٍ:

تـوكـيـدُ عِـلْـمِ الـلـه سبحانه بـمـا يُـخْـفـيـه الكافرون، وبما يجولُ في خواطر المؤمنين

أكّد النّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾ بمُؤكّداتٍ ثلاثةٍ؛ هي التّأكيد بالجملة الاسميّة، وحرفِ التّوكيد (إنَّ)، ولامِ التّوكيد المُزَحْلَقَةِ الواقعةِ في خبر (إنّ) في لفظ ﴿لَيَعْلَمُ﴾، وقد أفاد حَشْدُ هذه المُؤكِّداتِ بيانَ شمولِ عِلْمِ اللّه وإحاطتِه بكلِّ ما تحتويه صدورُ الكافرين، من مَكْرٍ وخُبْثٍ واحتيال، وكلِّ ما يُعلنونه من كُفرٍ واستهزاءٍ وسُخريةٍ. ويمكنُ القولُ كذلك: إنّ هذه المُؤكّداتِ تتضافَرُ لِتَنْزيلِ السّائِلِ الذي خطر بباله الاستفهامُ عن سبب الإمهال مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ، وذَلِكَ تَلْويحٌ بالعِتابِ، لعدم إداركهم لحكمةِ الإمهال[2].

سِرُّ تَكرارِ كلمةِ ﴿رَبَّكَ﴾:

تَـكَـرُّرُ ذِكْـرِ الرُّبوبيّة إشعارٌ بكمال التّفضُّل والـعِـلْـم، ولـلـمُـشـاكـلـةِ اللّفظيّة

عبّر النّظمُ الحكيمُ بلفظ الرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وذلك عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾؛ لتأكيد المعاني نفسِها التي أدّاها لفظُ الرّبوبيّة في الآية الأولى، من أنّ التّفضُّل بالإمهال برغم المعصيةِ والتّكذيبِ في هذا السّياق أليقُ بمقتضيات الرّبوبيّة، والحالُ أنّهُ أشارَ بِصِفَةِ الرُّبوبيَّةِ إلى إمْهالِهِمْ؛ إحْسانًا إلَيْهِ وتَشْريفًا لَهُ[3]. وكما يمكن القولُ: إنّ تَكرارَ كلمة (الرّبّ) في الآيتين كلتيهما من باب المُشاكَلةِ اللّفظيّة، فضلًا عن فائدة التّوكيد.

فائدةُ ذِكْرِ العِلْمِ في الآية:

عبّر النّظمُ الحكيم عن عِلْمِ اللّه سبحانه بما في صدور العالَمين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

عِلْمُ اللهِ سبحانه محيطٌ بالجُزئيّات كما هو محيطٌ بالكلّيّات

وما يُعلنونَهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾، إشارةً إلى عِلْم الله المُطْلَق، فهو سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ويعلم كلَّ شيءٍ على حقيقته التي هو عليها بعِلْمٍ سابقٍ غيرِ حادثٍ، أيْ: أنه سبحانه يعلمُ عِلْمًا لا يُشْبِهُ عِلْمَكم، بَلْ هو في غايَةِ الكَشْفِ لَدَيْهِ، دَقيقُه وجليلُه[1]. وأفاد التّعبيرُ بالمضارع أنّ أفعالَهم في موضع التّرصُّد المُستمرّ، فكلّما أعلنوا قولًا أو فعلًا، أو أَسرّوا هاجسًا أو خادعوا في فعل، فإنّ كلّ فعلٍ منهم يقابِلُه عِلْمٌ منَ الله بهذا الفعل خاصّةً، فأفعالُهم كلُّها معلومةٌ بتفاصيلها وجزئيّاتِها وآحادِها لله سبحانه، فالتّعبيرُ بالمضارع يُشير إلى تمام عِلْم الله بالجُزئيّات كما يعلمُ الكلّيّات.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿تُكِنُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

مهما بالغ الكفّارُ في إخفاء ما في صدورهم فإنّه لا يَخفَى على علّام الغيوب

عبَّر النّظمُ الحكيم عمّا يستترُ في قلوب النّاس عامّةً والمشركين خاصّةً، بالفعل المضارع ﴿تُكِنُّ﴾، أي: تُخْفي، وهو مِن (أكَنَّ) إذا جَعَلَ شَيْئًا كانًّا، أيْ: حاصِلًا في كِنٍّ. واكتننتُ الشَّيْءَ في نَفسي إذا صُنتُه عنِ الأَداء، وهو مبالغةٌ في السّتر والإخفاء والتّحوّط لِما في نفوس النّاس عامّةً، وفي صدور الكفّار خاصّةً منَ المَكر والخَديعة، فأفاد التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بإحاطة علم الله بأشَدِّ الأشياء خفاءً في نفوس العالَمين. كما أشار التّعبير بالفعل المضارع إلى تَجدُّد ما يحتاجُ إلى الإخفاء في الصّدور عند النّاس عامّةً، وعند الكافرين خاصّةً، لمكرهم الدّائم، وخِداعهم المُستمرِّ للدّعوة الإسلاميّة، وإنكارِهم لثوابت الاعتقادِ الصّحيح، كالبَعْث والعذاب الدّنيوي والأُخرويّ.

حتّى وإنِ امتلأتِ القلوبُ بالأسرار والخفايا وفاضت، فلا يخفَى على الله علمُها

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في إسناد الكَنّ إلى الصُّدور:

أخْبَرَ اللهُ تَعالى بسَعَةِ عِلْمِه، فَبَدَأَ بِما يَخُصُّ الإنْسانَ، وعَبَّرَ بِالصُّدورِ، وهي مَحَلُّ القُلوبِ الَّتي لَها الفِكْرُ والتَّعَقُّلُ، كَما قالَ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]، عَنِ الحالِّ فيها، وهي القُلوبُ، فإسْنادُ ﴿تُكِنُّ﴾ إلى الصُّدورِ مَجازٌ عَقْليٌّ باعْتِبارِ أنَّ الصُّدورَ مَكانَهُ، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المحلّيّة؛ إذ أُطلِقَ المَحلُّ، وهو الصّدرُ، وأُريدَ الحالُّ فيه وهو القلبُ، حتّى كأنّ القلوبَ لم تستوعب كلَّ ما تحويه من أسرار وخفايا؛ ففاضت حتّى ملأتِ الصّدور، ومع ذلك فإنّ علم ما فيها لا يخفَى عليه سبحانه. وجاءتِ الصّدور جمعًا للمشاكلة بين ضمائر الجمع في سياق السّورة، ولإفادة شمولِ علْمِه سبحانه بما تفرّق في صدور النّاس أجمعين.

سِرُّ إضافةِ الصّدور إلى ضمير الغائبين (هم):

الجمعُ بينَ العموم والإيجاز من أهمّ سِماتِ النّظم القرآنيّ

أضاف النّظمُ الحكيم كلمةَ (الصّدور) إلى ضمير الغائبين (هم)؛ للدّلالة على العموم، ليشملَ صدورَ النّاس عامّةً، وصدورَ الكافرين خاصّةً، وكذلك فقد عدل النّظمُ عنِ القول: (ليَعْلَمُ ما تكنّ صدورُ النّاس وما يعلنون)، أو (لَيَعْلَمَ ما تُكِنُّ صدورُ الكافرين وما يُعلنون)؛ لتوخّي الإيجاز البلاغيّ للنّظم القرآنيّ، الذي هو أحدُ معالمِ الإعجاز، في حين أَسْنَدَ الإعْلانَ إلى ذَواتِهِمْ؛ لِأَنَّ الإعْلانَ مِن أفْعالِ الجَوارِحِ[1].

فائدةُ تقديمِ الكَنّ على الإعلان:

ما يظهرُ على الجوارح منبعُه المُضمَرُ في الصّدور

جاء النّظمُ الحكيم بتقديم الإكنان على الإعلان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ وذلك لأنّ المُضْمَرُ في الصَّدْرِ لمّا كان هو الدّاعي لِما يَظْهَرُ عَلى الجَوارِحِ والسَّبَبُ في إظْهارِهِ؛ قُدِّمُ الإكْنانِ عَلى الإعْلان. وقيل: إنَّما قُدِّمَ الإسرارُ على الإعلانِ؛ للإيذانِ بافْتِضاحِهِم، ووُقوعِ ما يَحْذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

بلاغةُ الطّباق في الإعلان والكنّ:

للكفّار قبائحُ لا تُحْصَى وآفاتٌ لا تُعَدّ

جاء الطّباقُ بينَ الإكنان والإعلان في قوله تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى، المُحيطِ بجميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلْمَه بما يُسِرّونه أقْدَمُ منه بما يُعْلِنونه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ، وفيه إيذانٌ بِأنَّ لَهم قَبائِحَ غَيْرَ ما يُظْهِرونَهُ، وأنَّهُ تَعالى يُجازيهِمْ عَلى الكُلِّ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالإعلان مادّةً وصيغةً:

سَعةُ علمِ الله تعالى وإطلاقُه، وإحاطتُه بالسّرّ والإعلان

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ عما يُظهره النّاسُ عامّةً، والكافرون خاصّةً من أمورهم بـ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، والمقصود: ما يظهرونه مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ الَّتي مِن جُمْلَتِها ما حُكيَ عَنِ الكافرين مِن اسْتِعْجالِ العَذابِ، وفيهِ إيذانٌ بِأنَّ لَهم قَبائِحَ غَيْرَ ما يُظْهِرونَهُ وأنَّهُ تَعالى يُجازيهِمْ عَلى الكُلِّ[2]، وقد آثَرَ النَّظمُ الحكيم استعمالَ صيغة الفعلِ المضارع على الماضي؛ فعدلَ عن: (وإنّ ربّكَ يعلمُ ما أَكَنَّتْ صدورُهم وما أعلنوا)، فورد الفعلان بصيغة المضارع، التي تفيد تَجَدُّدَ الحدوثِ والاستمرار، على معنى أنّ كلَّ ما يُحدثونه من إظهارٍ أو إكنان إنّما يُقابِلُه عِلْمُ الله الأزليُّ، وفي هذا التّعبير ما فيه من إظهار سَعةِ علم الله تعالى. فإذا كانت سعةُ علمِ الله محيطةً بكلّ السّرائر، فهي - من باب أولى - محيطةٌ بكلّ ما يظهر ويُعلنُ منَ الأقوال والأفعال. وأُسنِد الفعلُ ﴿يُعْلِنُونَ﴾ لضمير الجمع لبيان أنّه سبحانه مُطّلِعٌ عليهم فَرْدًا فَرْدًا، فلا يُعْجِزُه إكنانُ واحد منهم أو إسرارُه، وقد أسهم هذا الإسنادُ في الحفاظ على هيمنة الفاصلة القرآنيّة، فجاء النّظمُ منسابًا رقراقًا يأسِرُ الأذنَ، ويمتّع القلبَ والعقل.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

سِرُّ عطفِ جملة ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾، وبلاغةُ التّذييل فيها:

ترقّي البيانِ من عِلْم الصّدورِ إلى عِلْم السّماء والأرض، برهانٌ على إحاطة علمِ الله

عطفتِ الواو قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ عَلى جُمْلَةِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وهو في مَعْنى التَّذْييلِ لِلْجُمْلَةِ المَذْكورَةِ؛ لِأنَّها ذُكِرَ مِنها عِلْمُ اللّه بِضَمائِرِهِمْ، فَذَيَّلَ ذَلِكَ بِأنَّ اللّه يَعْلَمُ كُلَّ غائِبَةٍ في السّماء والأرْض. وإنَّما جاءَ مَعْطوفًا؛ لِأنَّهُ جَديرٌ بِالاسْتِقْلالِ بِذاتِهِ مِن حَيْثُ إنَّهُ تَعْليمٌ لِصِفَةِ عِلْمِ اللّه تَعالى، وتَنْبيهٌ لَهم مِن غَفْلَتِهِمْ عَنْ إحاطَةِ عِلْمِ اللّه بِما تُكِنُّ صُدورُهم وما يُعْلِنونَ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بـ(ما) النّافية:

لا يخرجُ شيءٌ عن عِلْم الله، فكلُّ ما يقع في ملكه مسطَّرٌ منذ الأزل في كتاب مبين

عبّر النّظمُ الحكيم بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾؛ للدّلالة على النّفي والعموم؛ إذ مِن خصائص (ما) نفيُ الجُمَل الاسميّة والفعليّة، وهي آكَدُ في النّفي مِن (ليس)، وهي أوسعُ استعمالًا منها أيضًا؛ لأنّ (ليس) مختصّةٌ بنفي الجُمَل الاسميّة حسب[2]. وقد جاءت (ما) مناسِبةً تمامَ المناسبةِ لنفي خروجِ أيّ شيءٍ خفيٍّ عن عِلْم اللّه تعالى، بل كلُّ ما يقع في هذا الوجود مُسَطّرٌ منذ الأزل في كتاب مبين. وكذلك فقد كان استعمالُ (ما) ضروريًّا لاستعمال ﴿مِنْ﴾ الزّائدةِ بعدَها؛ لتأكيد معنى نفيِ خروجِ أيّ شيءٍ عن إحاطته سبحانَه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مِنْ﴾:

استغراقُ النّفي وتوكيدُه دلالةٌ ظاهرةٌ على هيمنة عِلْم الله تعالى وشمولِه

جاءت ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ زائدةً؛ للدّلالة على الاستغراق والتّوكيد، ولنفي جنس ما يقع بعدَها، ومعنى الزّيادة عندهم دخولُها على مجرور يطلبه العاملُ بدونها. وقدِ استوفت شروطَ الزّيادةِ، فقد تقدّمتها (ما) النّافيةُ، وجاء مجرورُها نكرةً،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.

وهي كلمةُ ﴿غَآئِبَةٍ﴾، وهي في موقع الفاعليّةِ[1]، فأفادت بهذه الشّروطِ استغراقَ نفي وجودِ أيّ شيء خفيٍّ شديدِ الخفاء في السّماء أو في الأرض، خارجٍ عن علْمِ اللّه المحيطِ في كتابه المبين.

سِرُّ تنكيرِ كلمةِ ﴿غَآئِبَةٍ﴾:

جاءت كلمةُ ﴿غَآئِبَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ نكرةً في سياق النّفي، فأفادت عمومَ النّفي وتأكيدَه، والمرادُ من تأكيد النّفي بيانُ أنّه ما مِن شَيْءٍ في غايَةِ الغَيْبوبَةِ والخَفاءِ إلّا في كِتابٍ عِنْدَ اللّه ومَكْنونِ عِلْمِه، وما غابَ عَنْهم من عَذابِ السّماء والأرْض، أو هو يَوْمُ القيامَةِ وأهْوالُها، أو أيُّ حادِثَةٍ غائِبَةٍ، أوْ نازِلَةٍ واقِعَةٍ. "وقالَ ابْنُ عَبّاسٍ: أيْ: ما مِن شَيْءٍ سِرٍّ في السَّماواتِ والأرْضِ وعَلانيَةٍ، فاكْتَفى بِذِكْرِ السِّرِّ عَنْ مُقابِلِه"[2].

التّنكيرُ في سياق النّفي يُؤكّدُ استحالةَ خروجِ شيءٍ عن عِلْمِ اللّه تعالى

دلالةُ التّاء في ﴿غَآئِبَةٍ﴾:

ذكرَ العلماءُ في تاء كلمة ﴿غَآئِبَةٍ﴾ قولين؛ **الأوّل**: أنّها تاءٌ مزيدةٌ للمبالغة في الصّفات، نحو: راويَة وعلّامة. **والآخرُ**: أنّها للنّقل منَ الوصفيّة إلى الاسميّة، فسُمّيَ الشَّيْءُ الّذي يَغيبُ ويَخْفى غائِبَةً وخافيَةً، فكانَتِ التّاءُ فيهما بِمَنزِلَتِها، ونَظيرُهُما: النَّطيحَةُ والذَّبيحَةُ والرَّميَّةُ في أنَّها أسْماءٌ غَيْرُ صِفاتٍ، أو في المصادر مثل: العاقِبَةِ والعافيَةِ. فكَأنَّهُ قالَ: وما مِن شَيْءٍ شَديدِ الغَيْبوبَةِ والخَفاءِ، إلّا وقَدْ عَلِمَهُ اللّه وأحاطَ بِهِ وأثْبَتَهُ في اللَّوْحِ المُبينِ الظّاهِرِ لِمَن يَنْظُرُ فيهِ مِنَ المَلائِكَةِ[3]، فإنّه لا يخفى على اللّه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. وقيل في دخول الهاء في الغائبة: إنّها إشارةٌ إلى الجماعة الغائبة، فهي تتضمّن الإحاطةَ بجميع الغائبات، لا ببعضها دونَ بعض[4].

ما مِن شَيْءٍ شَديدِ الغَيْبوبَةِ إلّا وقَدْ عَلِمَهُ اللّه وأحاطَ بِهِ وأثْبَتَهُ في كتاب مُبينٍ

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 83.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 471، وأبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481.
(4) الواحديّ، البسيط في التّفسير: 17/ 294.

علّةُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

إفرادُ السّماء يُناسِبُ خطابَ المُنكِرين لتعَدُّدِها

جاءت كلمةُ السّماء في الآية الكريمة مفردةً؛ لأنّ المُخاطَبين المُحْتَجَّ عليهم بهذه الآية - والغالبُ عليهم التّكذيبُ والإنكار - إنّما كانوا مُقرّين بهذه السّماء التي يشاهدونها بالحِسّ، ولم يكونوا مُقرّين ولا عالِمين بتعَدُّد السّماوات، فأُفْرِد لفظُ السّماء. أو المُراد: في أيِّ مَوْضِعٍ كانَ مِنهُما، وأفْرَدَهُما دَلالَةً عَلى إرادَةِ الجِنْسِ الشّامِلِ لِكُلِّ فَرْدٍ[1].

فائدةُ الطّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

شمولُ العِلْمِ الإلَهيّ الأزليّ واتّساعُه ليشملَ كلَّ ما في الوجود

جاء الطّباقُ بين ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبرزًا شمولَ العِلْم الإلَهيّ الأزليّ، فسواءٌ أكان ذلك الشّيءُ الشّديدُ الخفاءِ في السّماء أم في الأرض، فإنَّ حقيقةَ خَبَرِه لا تَغْرُب عن عِلْم الله تعالى. ففي هذا الطّباق بيانٌ لاختصاصه وحْدَه سبحانه بعِلْم كلّ شيء، وفيه كذلك تذكيرٌ للمُكذِّبين المُعانِدين بأنّهم لن يخرجوا عنِ الوجود في أحد هَذَين المكانين، فسواءٌ أكانوا في السّماء أم في الأرض فعند اللهِ عِلْمُهم وخَبَرُهم.

فائدةُ تقديمِ السّماء على الأرض:

اقتضت عَظَمةُ السّماءِ وأسبقيّتُها في الخَلْق تقديمَها في الذِّكر

جاء النّظمُ الحكيم بتقديم السّماء على الأرض مُراعاةً لعَدَدٍ منَ الفوائد الدّقيقة؛ منها: الإشارةُ لعَظَمة خَلْق السّماء وما فيها من آيات تدلُّ على قُدْرة الله؛ إذ إنّ السّماء وما تحتويه من كواكبَ ونجوم تُعدّ أكثرَ اتّساعًا وأعظمَ خَلْقًا موازنةً بالأرض. كما أنّ في تقديمها مراعاةً لترتيب الخَلْق، فقد خلق اللهُ السّماء أوّلًا، ثمّ الأرضَ، ومِن ثَمّ بدأ النّظمُ بها في ترتيب العِلْم بالغائبات والخفايا.

سِرُّ استعمالِ أسلوبِ القَصْر بالنّفي والاستثناء:

جاء أسلوبُ القَصْر بالنّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 211.

تأكيدُ شمولِ عِلْمِ اللهِ لكلّ غيبٍ في السّماء والأرض

أسلوبُ القَصْر الحقيقيّ الذي يُفيد الشّمولَ والعمومَ، ويأتي فيه المقصورُ عليه بعد ﴿إِلَّا﴾، وما تقدَّمَها هو المقصورُ، وفي هذا توجيهُ العنايةِ الخاصّة والمَقصد الأوّل فيما وراء ﴿إِلَّا﴾؛ لأنّه هو المُعَوّلُ عليه من قصد السّياق كلِّه[1]، ولذلك تكون ﴿إِلَّا﴾ في مثل هذا الأسلوبِ أداةَ حصْرٍ، فقَصَرت معنى عِلْم الغيب والخفايا على الكتاب المبين، الذي هو اللّوح المحفوظُ، أو هو عِلْم الله تعالى، وقد أفاد القَصْرُ هنا شمولَ عِلْم الله وحْدَه للغيب.

لفظُ (الكتاب) بين بلاغةِ الاستعارة والكناية:

علمُ اللهِ تعالى بالغيب مُحَقّقٌ ثابتٌ لا يتغيّر

تعدّدت أقوالُ العلماء في المراد بـ(الكتاب) في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، فذهب أكثرُهم إلى أنّ المُراد اللّوحُ المحفوظ، وقيلَ: المُرادُ بالكِتابِ المُبينِ عِلْمُهُ تَعالى الأزَليُّ، الَّذي هو مَبْدَأٌ لإظْهارِ الأشْياءِ بالإرادَةِ والقُدْرَةِ. وقيلَ: حُكْمُهُ سُبْحانَهُ الأزَليُّ. وقيلَ: المُرادُ بِهِ القُرْآنُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مَخْلوقًا غَيْبيًّا يُسَجَّلُ فيهِ ما سَيَحْدُثُ[2]. وإذا كان المرادُ بـ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ علمَ اللهِ تعالى، فهو إمّا كنايةٌ أو استعارةٌ؛ كنايةٌ عن عِلْم الله المُحَقّق وشموله وضبطه وحِفظه وثباته واستقراره، والمعنى: أنّ كلّ غيبٍ خَفيٍّ في السّماء أو في الأرض مهما خَفيَ على البشر والمخلوقات أجمعين؛ فإنّه ثابتٌ لا يتغيّر في عِلْم الله ولا يَتبدَّل، فهو سبحانه عالمٌ بكلّ خفيٍّ وظاهرٍ عِلْمًا ثابتًا، كالمَكتوب البَيّن المُسَجّلِ في كتاب واضحٍ لا يخفى منه خافيَةٌ. وذهب آخَرون إلى أنّ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ استعارةٌ، فالكتابُ عِلْم اللهِ، استُعير له الكتابُ؛ لأنّه ثابتٌ لا يخالِفُ الحَقّ بزيادةٍ ولا نقصان[3]. ولعلّ الكنايةَ أقربُ للسّياق، ولتَنزيه اللهِ ﷻ.

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 176 - 187.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2525، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

الغرضُ من تنكير ﴿كِتَٰبٍ﴾:

تفخيمُ الكتاب وتعظيمُه؛ لاختصاصه وخَدَه بعِلْم الغَيْب

جاءت كلمةُ ﴿كِتَٰبٍ﴾ في الآية الكريمة نَكرةً في سياق النّفي، فأفاد التّنكيرُ هاهنا تعظيمَ شأنِ الكتاب وتفخيمَه؛ لاختصاصه بعِلْم الغيب في السّماء والأرض، ممّا يدلُّ على أنّ هذا الكتابَ قد حوى جميعَ الغيبيّاتِ والأسرار، فهو كتابٌ عظيمُ الشّأنِ عند الله، ويُعَبّر عن شُموليّة عِلْم الله وإحاطته بكلّ شيء في الكَون.

سِرُّ المَجازِ العقليّ في وصف الكتاب بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

الكتابُ يُبينُ كلَّ خفايا الغيب والأسرارِ في السّماء والأرض

وَصَفَ النّظمُ الكريم (الكتابَ) بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾؛ لإفادة أنّه مُبينٌ بنفسه، وفيه مجازٌ عقليٌّ في الإسناد؛ للدّلالة على معنى المبالغة في بيانه ووضوحه، لاستلزام العِلْمِ الإبانةَ، والصِّفةُ هنا ليست صفةَ تقييد، بل هي للإيضاح والبيان؛ لأنّ الكتاب الذي عند الله، وهو اللّوحُ المحفوظ - على رأي بعضهم - لا يكون إلّا مُبينًا، فهو كتابٌ يُبيّنُ لِمَنْ قَرَأَهُ أنّه ما من أمرٍ خَفيٍّ في السّماء والأرض إلّا وقد اشتمل عليه وأبانَه[1]. والمَعْنى: أنَّ الله لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ حَقيقَةُ شَيْءٍ ممّا خَفيَ عَلى العالَمينَ. وذَلِكَ يَقْتَضي أنَّ كُلَّ ما يَتَلَقّاهُ الرُّسُلُ مِن جانِبِ الله تَعالى، فَهو حَقٌّ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ الأمْرُ بِخِلافِهِ. ومِن ذَلِكَ ما كانَ الحَديثُ فيهِ مِن أمْرِ البَعْثِ الَّذي أنْكَروهُ وكَذَّبوا بِما جاءَ فيهِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَضْل والإحسان والإنعام:

الإنعامُ في مقام الهِبَةِ، والفَضْلُ نفعٌ زائدٌ غيرُ واجبٍ

الإنعامُ لا يكونُ إلّا مِنَ المُنعِم على غيرِه؛ لأنَّه مُتضَمِّنٌ بالشُّكرِ الذي يجبُ وجوبَ الدَّينِ، ويجوزُ إحسانُ الإنسانِ إلى نفسِه؛ تقولُ لِمن يتعلَّمُ العِلْمَ: إنَّه محسِنٌ إلى نفسِه، ولا تقولُ: مُنعِمٌ على نفسِه.

والإفضالَ والإفضالُ: النَّفعُ الزّائدُ على أقَلِّ المِقدارِ، وقد خُصَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

الإحسانُ بالفَضلِ، ولم يجِبْ مِثلُ ذلك في الزّيادةِ؛ لأنَّه جرى مجرى الصِّفةِ الغالبة؛ لأنَّ الإحسانَ قد يكونُ واجبًا وغيرَ واجبٍ، والفضلُ لا يكونُ واجبًا على أحَدٍ، وإنَّما هو ما يُتَفَضَّلُ به من غيرِ سَبَبٍ يوجِبُه[1]. ولذلك اختير في الآية ليُناسبَ إنعامَ اللّه تعالى على عباده، الذي يتفضّل به على عباده بحِكمته ويزيد.

الإكنان والإخفاء:

الإكنانُ تغطيةٌ، والإخفاءُ كِتمانٌ

الإكنان لغةً: السَّترُ والتّغطيَةُ والإخفاء، ووِقاءُ كلِّ شيءٍ وسَتْرُه، والكِنُّ: البيتُ أيضًا، والجمعُ أكنانٌ وأَكِنَّةٌ، وأَكَنَّ الشَّيءَ: سَتَرَهُ، واكتنّتِ المَرأةُ: غَطّت وجْهَها وسَتَرتْهُ حياءً منَ النّاس.

والإخفاء لغةً: السّترُ والكِتمانُ، يقال: خَفَيْتُ الشَّيءَ أَخْفيه: كَتَمْتُه، وأَخْفَيْتُ الشَّيءَ: سَترتُهُ وكَتَمْتُه، ويقابله الإبداءُ والإعلانُ، والإخفاء: تغييبُ الشّيء، وأن لا يُجْعَل عليه علامةٌ يُهتَدى إليه من جهتها، وهو منَ الأضداد[2].

ولعلَّ في الإكنان مبالغةً في التّحوّط والسَّتر من مُجرّد الإخفاء، ففيه معنى الإخفاءِ وزيادةُ الحِفظِ والتّحوّطِ؛ ولذلك اختيرَ في الآية ليُفيدَ إحاطةَ عِلْمِ اللّهِ بأَشَدِّ الأشياء خفاءً في نفوس العالَمين عامَّةً، وعند الكافرين خاصّةً؛ لِمَكرهم الدّائم، وخِداعِهمُ المُستمرِّ للدّعوة الإسلاميّة، وإنكارِهم ثوابتَ الاعتقادِ الصّحيح؛ كالبعث والعَذاب الدّنيوي والأُخرويّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 23، و24، و193.
(2) الرّاغب، المفردات: (خفي) و(كنن).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»